للرجل الذي معه لا إكرامًا لأمه وأبيه اللذين من صفاتهما كيت وكيت، كما علم قبل ذلك على ما يظهر.

ولم تكن سارة من السذاجة بحيث تَفرُق من محذور هذه الحادثة، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعي بتدبيرها أن ساءت الجريرة وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاء المحذور سهل من «الوجهة الرسمية»، وقد سبق لهما أن تعرضا معًا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة في الضواحي البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية، فنظرت إليهم غير حافلة وتركت همامًا يزجرهم وينهرهم ليعلموا ألَّا رجاء في مساومةٍ ولا خوفٍ من فضيحة، فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزقٍ مخيفٍ والفزع من عاقبةٍ محذورةٍ، وإنما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهي مغمضة العينين.

فلما عاد همام إلى المركبة واستوى في مكانه فيها لَمْ تَزِد على أن زحفت إلى جانبه واستكانت إلى جواره وتطامنت في حضنه تطامن الفرخ في حضن أبيه، وهمست تحت أذنه وهي تمسح خدها بخده: ما أسعدني بجوارك سيدي ومولاي! وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة، وكان ذلك كل ما فاهت به من تعبيرٍ عن سرورها، وما كانت في حاجةٍ إلى أن تزيد؛ فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنيًّا عن كل كلام.

وعرف همام أنها استكشفته وطبعته في صفحة المحاكاة عندها بعد فترةٍ وجيزةٍ، فجعلت تحكيه وتمثله في ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت، واعتراضه بالإشارة، وردوده وهو مشغول، وردوده وهو حاضر القريحة، وتعقد أحيانًا محادثةً طويلةً بينها وبين نفسها تتكلم فيها مرة بصوتها وأسلوبها ومرةً بصوت همام وأسلوبه، فتجيد المحاكاة في اللهجة والتفكير إجادةً لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين، بل يزيدها ملاحةً على ملاحةٍ.

وإنها لقد عرفت منه بزكانة المرأة في شهرٍ واحدٍ ما لَمْ يعرفه أصدقاؤه وخلطاؤه في أعوام، فتقول له إن الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذي بطل فيه التردد وخلا من كل هياجٍ وكل ثورةٍ، وتقول له: إنني إذا أردتُ أن أهزمكَ لَمْ أبرز لكَ بسلاحٍ ولم ألبس لكَ شكة الحرب، فأقودكَ من أذنيك.